فكرة الجمال في تصورات مالك بن نبي

The idea of beauty in the perceptions of Malik Bin Nabi

فايد لطيفة[1*]، د. شارف عباس[2]

[1] جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم (الجزائر)، latifa.faid.etu@univ-mosta.dz

[2] جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم (الجزائر)، charefabbas@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2021/05/10 تاريخ القبول: 2021/05/21 تاريخ النشر: 2021 /06/05

ملخص:

يتناول هذا المقال حضور المسألة الجمالية في المشروع الحضاري لمالك بن نبي، وذلك من خلال تأكيده على أهمية الحس الجمالي في الإنتاج الثقافي والبناء الحضاري، كما يقف المقال على منابع ومرجعيات الوعي بالمسألة الجمالية عند فيلسوف الحضارة، وكذا الخصوصيات التي تنفرد بها نظرته داخل الفكر الجمالي، ومدى فعاليتها في واقع المجتمعات العربية الإسلامية.

كلمات مفتاحية: الجمال؛ الحس الجمالي؛ المنابع؛ البناء الحضاري؛ مالك بن نبي.

Abstract:

This article deals with the presence of the aesthetic issue in the civilization project of Malik Bin Nabi, through his affirmation of the importance of aesthetic sense in cultural production and civilized construction, the article also stands on the sources and references of awareness of the aesthetic issue of the philosopher of civilization, as well as the particularities that are unique to his view within the aesthetic thought, and the extent of its effectiveness in the reality of arab and islamic societies.

Keywords: Beauty; Aesthetic Sense; Sources; Construction of Civilization; Malik Bin Nabi.

*المؤلف المرسل

1. مقدمة:

يُعد المبحث الجمالي من المواضيع التي حظيت باهتمام كبير من المفكرين وتعددت حوله واختلفت نظريات ومدارس الفكر الغربي والفكر العربي والإسلامي بحكم اختلاف ثقافاتهم وعصورهم.

ولا يمكننا الحديث عن الفكر الجمالي في العالم العربي والإسلامي من دون التطرق والاقتراب من المفكر مالك بن نبي باعتباره صاحب رؤية أو نظرية في المجال الجمالي، وقد أطلق على رؤيته أو نظريته تسمية "التوجيه الجمالي".

فمالك بن نبي يعد من أبرز المفكرين الإسلاميين الذين أولوا عناية خاصة للذوق الجمالي، وما يؤديه في صياغة الثقافة، وتحديد ذاتيتها، كما بين أهمية النزعة الجمالية في تحديد اتجاه الحضارة في التاريخ، وركز في دراسته للحضارة على أن الذوق الجمالي ينعكس على سلوك الفرد والمجتمع، ويظهر

هذا في الأفكار، والأعمال، وكل المساعي، أي أن عنصر الجمال مهم لتكوين الذوق العام، بل أكثر من ذلك يراه مدخلا مهما للتغيير الاجتماعي والبناء الحضاري، بل ملهما لأفكارنا التي بها نبني مجتمعاتنا.

فمن أين استمد مالك بن نبي فكرة التوجيه الجمالي؟ وما هو مفهومه للجمال؟ وما تراتبية الذوق الجمالي في سلم القيم الثقافية؟ وهذا ما سنحاول الإجابة عليه.

2. النزعة الجمالية في فكر مالك بن نبي:

1.2 منابع الحسُّ الجمالي في فكر مالك بن نبي:

التربية الصحيحة هي التي ترمي إلى غايات محددة وأهداف بديلة؛ ولا ريب أن أهمها حب الخير والإخلاص اللذان هما نتيجة للتربية الأخلاقية، وحب الحق الذي هو نتيجة للتربية العقلية وحب الجمال الذي هو نتيجة التربية الذوقية؛ من هنا يمكننا القول أن للتنشئة الأخلاقية -التي نما عليها مالك بن نبي في بيئته الجزائر إلى جانب المؤثرات الفنية والجمالية التي اكتسبها في باريس- أثر بالغ في تشكيله الذوقي وتصوراته الجمالية[1].

فالنزوع الجمالي في شخصية مالك بن نبي ميول أصيلة زادها رسوخا المحيط الاجتماعي الفرنسي بتناسقه ونظامه، إلا أن هذا الميل قد تعزز عبر معايشته لزوجته من خلال ما لاحظه في سلوكها، فالنظافة والدقة في ترتيب الأشياء وتنسيقها وفنون الأشغال اليدوية، وغير ذلك من الأعمال والسلوكيات اليومية التي كانت تقوم بها ذات المعطى الجمالي، قد طورت لديه الإحساس بالجمال وتذوقه، حيث كان إبداعها فائقا في هذا المجال، وهذا ما عبر عنه قائلا: "ولم تكن امرأة تبدع في بيتها مثل خديجة وتتقن إتقانها، من ناحية النظافة والتجميل كان ترتيب الأشياء ميزة لها على وجه الخصوص، فقد طُلب منها ذات يوم في أحد تنقلاتها بين الجزائر وفرنسا، أن تفتح حقيبتها لموظف الجمارك، فعندما فتحتها وشاهد الموظف دقة ترتيبها وجماله، عدّ من العبث أن ينقضه بتفتيش على لاشيء فقال: أغلقي سيدتي حقيبتك، إنني لا أريد أن أضع يدي في هذا البناء الدقيق"[2]، وقوله أيضا: "... وقد كنت أشاهد ذلك في بيتي، حيث لا يسمح لي بالدخول إلا وأقدامي على قطعة قماش سوف أجدها عند الباب، حتى لا يخدش نعلي البلاط الخشن الممسوح بمادة تجعله يبرق كمرآة، وما ننتهي من الأكل، حتى تصبح المائدة وسط الغرفة لتوضع عليها تحفة فيها طاقة من الزهور"[3].

إن معايشة مالك بن نبي لخديجة أورثت في نفسيته من نفور لكل ما يسيء لذوق الجمال فقد كان لها أثر كبير على حياته الاجتماعية وعلى منظومته الفكرية ومن أسباب تحوّل استعداداته الفطرية إلى أفكار اجتماعية، مما دفعه إلى القول بتضمين الثقافة المربية عنصر الجمال، يقول مالك بن نبي: "إنني أذكر هذه التفاصيل لأنني أعدها دالة على التطور النفسي الذي سيجعلني أشد الناس نفورا لكل ما يسيء لذوق الجمال، ولأنها تفسر ثورتي على بعض جوانب تخلفنا التي تصبح موضوع السخرية في

بعض المجلات، (...) غير أن الاستعدادات التي تدفعني إلى هذا الموقف كانت أصيلة في نفسي، لم أكتسبها اكتساباً بدأت معه تغيير بعض مظاهري منذ وجودي بمدرسة قسنطينة، وإنما وجودي بفرنسا ومعايشتي لزوجتي طورا هذه الاستعدادات الوراثية إلى أفكار اجتماعية واضحة"[4].

2.2 الجمال من منظور مالك بن نبي:

إن الجمال في الدرجة الأولى هو نتاج ثقافي إذ كما يقول مالك بن نبي: "إن المجتمع ينتج، مهما تكن درجة تطوره، بذوراً أخلاقية وجمالية نجدها في عرفه وعاداته وتقاليده؛ أي فيما نصطلح على تسميته ب(ثقافته) في أوسع معاني هذه الكلمة، وطبيعي أنه بقدر ما تكون هذه (الثقافة) متطورة، فإن البذور الأخلاقية والجمالية تكون أقرب إلى الكمال، حتى تصبح بالتالي القوانين المحددة التي يخضع لها نشاط المجتمع، والدستور الذي تقوم عليه حضارته (...) الثقافة في صورتها الحية، فهي وحدة ذات أجزاء متماسكة ومترابطة فيما بينها بروابط داخلية تحددها عبقرية الشعب الذي وضعها مطابقة لأخلاقه وأذواقه وتاريخه"[5].

والجمال في سياق مفهوم مالك بن نبي يمثل جزئية من المفهوم ولا يمثل المفهوم كله بحيث يمكننا أن ننعت مفهوم الجمال في مشروع مالك بن نبي الحضاري بالمفهوم الحضاري الموسع للجمال وعليه سندرك أن مفهوم الجمال في هذا الإطار يصبح شكلا له مضمون متعدد القيمة[6].

يشكل الجمال جزئية من جزئيات الثقافة وفصلاً من فصولها على اعتبار أن الثقافة هي "الوسط الذي تتكون فيه جميع خصائص المجتمع المتحضر، وتتشكل فيه كل جزئية من جزئياته، تبعاً للغاية العليا التي رسمها المجتمع لنفسه، (...) فالثقافة هي تلك الكتلة نفسها، بما تتضمنه من عادات متجانسة وعبقريات متقاربة، وتقاليد متكاملة وأذواق متناسبة، وعواطف متشابهة، وبعبارة جامعة: هي كل ما يعطي الحضارة سمتها الخاصة، (...) بل هي دستور تتطلبه الحياة العامة"[7].

والجمال هو العنصر الذي يصوغ صورة المبدأ الأخلاقي؛ هذا الأخير يمد الثقافة بعنصرها الأول؛ وهو إقامة العلاقات بين عالم الأشخاص، فيحقق بذلك الأساس الأول للثقافة، و من ثم يأتي دور الذوق الجمالي؛ الذي يحدّد صورة العلاقات، فهو "الذي يطبع الصلات الاجتماعية بطابع خاص، فيضفي على الأشياء الصورة التي تتفق مع الحساسية والذوق العام ألواناً وأشكالاً، فإذا كان المبدأ الأخلاقي يقرر الاتجاه العام للمجتمع بتحديد الدوافع والغايات، فإن ذوق الجمال هو الذي يصوغ صورته"[8].

لهذا يعتبر مالك بن نبي أن الذوق الجمالي من أهم العناصر الديناميكية المحّركة للثقافة، لأنه حسب رأيه "يحرك الهمم إلى ما هو أبعد من مجرد المصلحة، ويحقق شرطا من أهم شروط الفعالية، لأنه يضيف إلى الواقع الأخلاقي عند الفرد دوافع إيجابية أخرى، من شأنها أحيانا أن تعدل من بعض الدوافع السلبية التي ربما يخلقها المبدأ الأخلاقي الجاف في سلوك الفرد، حينما يصطدم هذا السلوك الصادر عن مبدأ أخلاقي مجرد من الحساسية الإنسانية مع الذوق العام"[9].

ويمكن أن يلحظ أثر الذوق الجمالي المحدد لجفاف المبدأ الأخلاقي، في ضوء أسلوب النبي صلى الله عليه وسلم الذي يحقق الأمرين معا؛ تنفيذ المبدأ الأخلاقي، مع مراعاة عدم المساس بالآخرين بصورة مباشرة، حيث كان الرسول صلى الله عليه وسلم يستخدم أسلوب التعريض، عندما كان يريد انتقاد بعض الأشخاص الذين تصدر عنهم بعض القيم السلبية، فكان يقول: ما بال قوم يقولون كذا أو يفعلون كذا"، فلم يصرح بأسمائهم، وإنما حذر من الأفعال المغالية في الدين، وهنا يتمثل العنصران معا، المبدأ الأخلاقي بالنهي عن الفعل الخاطئ، والذوق الجمالي بإصدار النهي بصورة لا تجرح شعور مقترف الذنب[10]، فالجمال هو العنصر الذي يستمد من الأخلاق وجهته ومقوماته، وبالتالي فهو تشكيل عملي للمبدأ الأخلاقي.

ومالك بن نبي ينظر إلى الجمال من زاويته النفسية والاجتماعية، وليس باعتباره الظاهري فقط؛ أي إلى "ذلك الجانب النفسي المستوحى من منظر أو شكل أو رائحة أو صوت أو لون. هذه الحركات أو الأشكال إما تؤدي إلى إحساس بالقيمة الجمالية، أو إلى سماجة في السلوك إذا كان ما توحي به مستقبحاً"[11]، وكما يقول مالك بن نبي: "فالجمال الموجود في الإطار الذي يشتمل على ألوان وأصوات وروائح وحركات وأشكال، يوحي للإنسان بأفكاره، ويطبعها بطابعه الخاص من الذوق الجميل،أو السماجة القبيحة"[12].

ولعله يقصد أن أفكار الإنسان بما تحمله من خير أو شر هي انعكاس للصور المحسوسة في محيطه الخارجي، فوجود صور جميلة تصنع أفكارا جميلة وكذلك تصنع الصور القبيحة أفكارا قبيحة، لذا فهو يؤيد الإمام أبو حامد الغزالي - رحمه الله – وغيرهم من علماء الأخلاق، ممّن درسوا تأثير الجمال في الروح الاجتماعية، ويرى أن فكرتهم التي تعتبر الإحسان صورة نفسية للجمال يمكن ترجمتها من الزاوية الاجتماعية بأن "الأفكار - بصفتها روح الأعمال التي تعبر عنها أو تسير بوحيها- إنما تتولد من الصور المحسة، الموجودة في الإطار الاجتماعي، والتي تنعكس في نفس من يعيش فيه، وهنا تصبح صوراً معنوية يصدر عنها تفكيره"[13].

كما ركز مالك بن نبي في كثير من كتاباته على أن الجانب الجمالي لا يتأتى بكثرة المواد وبتنوعها، وإنما هو عملية عقلية سليمة وتوظيف الوسائل المتاحة على قلتها بمهارة، ويستشهد بذلك بأمثلة كانت تحضر في ذهنه باستمرار خاصة عن زوجته الفرنسية حينما قال: "تصنع بيدها آيات من الذوق ببعض خشب وبعض قماش مزركش من نوع الكريتون الرخيص جداً"[14].

والذوق الجمالي كقيمة حضارية يتسع مفهومه عند مالك بن نبي، وشموله لكل ما له مساس بالنفس أو المجتمع، لذا فهو يقول: "والواقع أن أزهد الأعمال - في نظرنا - له صلة كبرى بالجمال، فالشيء الواحد قد يختلف تأثيره في المجتمع باختلاف صورته التي تنطق بالجمال، أو تنضح بالقبح، ونحن نرى أثر تلك الصورة في تفكير الإنسان، وفي عمله، وفي السياسة التي يرسمها لنفسه، بل حتى في الحقيبة التي يحمل فيها ملابس سفره"[15] فإن تأثيره، كما يقول مالك بن نبي: "فعام يمس كل دقيقة

من دقائق الحياة كذوقنا في الموسيقى والملابس والعادات وأساليب الضحك والعطاس، وطريقة تنظيم بيوتنا وتمشيط أولادنا ومسح أحذيتنا وتنظيف أرجلنا"[16]، بل إن الإطار الحضاري بكل محتوياته – كما يؤكد على ذلك مالك بن نبي – "متصل بذوق الجمال، بل إن الجمال هو الإطار الذي تتكون فيه أي حضارة"[17].

3. غياب الحس الجمالي لدى الفرد المسلم:

مما يقرره علماء الأصول أن الأصل في الأشياء الإباحة، وأن الحرام استثناء للحلال إلا أن حيز الحلال قد تراجع خصوصا بعد سنوات الانحطاط، وحل التحوّط والمبالغة في اتقاء الشبهات محله، حتى أصبح الدين في نظر البعض عبارة عن أخطوطيات تندر من أراد التقرب منها، وبالغنا في سد الذرائع وحل التحريم مكان التحليل، حتى في المسائل الخلافية مما أدى بنا إلى ترك واجبات نحن في أمس الحاجة إليها.

فتراجعت حرية الرأي وخَفَتَ الإبداع وانعدمت المبادرة خاصة في مجال الفنون والآداب والجماليات على الرغم من أن الجمال مقصد إلهي مبثوث في الكون والأنفس والتشريع، فكل ما في الإسلام جميل ويدعو إلى الجمال، والإسلام هو أجمل الديانات كافة على الإطلاق، السماوية وغير السماوية، وكتابه ليس جميلا فحسب بل هو آية ومعجزة في الجمال.

لكن لو قمنا بتتبع الحركات الإسلامية مسيرة ومنظومة نجد عند غالبيتها عدم اهتمام بالذوق الجمالي بل وإدارة الظهر لها، حتى غدا الوعي الجمالي والأحاسيس الراقية والفنون العامة، غريبة عن المسلمين[18]، ويمكن أن نضرب مثال ذلك ما نشاهده يوميا من تصرفات بعيدة عن معاني الجمال فما نراه في شوارعنا من قاذورات وأوساخ وفضلات، وما نراه على حيطان مدارسنا وثانويتنا، وحتى جامعاتنا من خربشات وتشويه لصورتها، صورة من صور قبحنا لما فقدنا أدنى معنى للجمال.

وهذا ما لاحظه مالك بن نبي أننا في العالم الإسلامي اليوم نفتقد لذوق الجمال، ولو كان عندنا لوظفناه في حل مشكلاتنا باعتباره أحد فصول الثقافة مثله مثل المبدأ الأخلاقي، والمنطق العملي، وجانب الفن الصناعي، فيقول: "ولعل من الواضح لكل إنسان أننا أصبحنا اليوم نفقد ذوق الجمال، ولو أنه كان موجودا في ثقافتنا، إذن لسخرناه لحل مشكلات جزئية، تكون في مجموعها جانبا من حياة الإنسان"[19]. ف"الحس الجمالي له معنى اجتماعي مهم إذا أخذناه بعين الاعتبار حسب مالك بن نبي"[20]، لأنه يساهم في حل مشكلات المجتمع.

والأمثلة التي تدل على انعدام الجمال وتذوقه معا كثيرة في نصوص مالك بن نبي، ونورد على سبيل الإيضاح بعضها، ما ذكره في كتابه "شروط النهضة" عن ذلك "الطفل الذي يلبس الأسمال البالية، والثياب القذرة، (...) حيكت من قاذورات وجراثيم، مثل هذا الطفل الذي يعيش جسمه وسط هذه القاذورات والمرقعات غير المتناسبة، يحمل في المجتمع صورة القبح والتعاسة معا، بينما هو جزء

من ملايين السواعد والعقول التي تحرك التاريخ، ولكنه لا يحرك شيئا، لأن نفسه قد دفنت في أوساخه، (...) ولنستخدم أبسط معنى للجمال، ولننظر من قريب إلى أسمال هذا الطفل، فهي - على كونها أسمالا - تحمل معنى القبح، وتحمل أكثر من ذلك جراثيم تقتله ماديا وأدبيا، فليست هذه الأسمال جرابا للوسخ فقط، ولكنها سجن لنفس الطفل أيضا"[21].

وهذا المثال يدل ضمنيا أنه لما نرى خرقا في كساء أحد الأطفال فإنه يشعرنا بوجود خرق في ثقافتنا ودليل على تخلفنا لأن القبح الذي يطغي على المجتمع إنما يعبر عن عرض من أعراض تخلف الحضارة، ويكتشف مالك بن نبي أن سر تخلف العالم الإسلامي يرجع إلى إهمال شعوبه للذوق الجمالي، فقد ساهم الجمال في تطور الحضارة الغربية وأصدق مثال يعبر عن اهتمام هذه الحضارة بذوق الجمال يستمده مالك بن نبي من روسيا، فقد أصدرت سلطاتها "بعض الأوامر في مدينة موسكو (...) تلزم سكانها بأن يراعوا في يقظة نظافة مدينتهم، وإلا فهم مهددون بفرض غرامة تبدأ من خمسة وعشرين إلى مئة روبل على كل من يبصق في الشارع، أو يلقي بأعقاب (السجائر) على الرصيف، أو يعلق ملابسه في الشباك المطل على الشارع، أو يلصق إعلانات على الحوائط، أو من يركب السيارات العامة بملابس العمل المتسخة، فلو سألنا عمدة موسكو مثلا عن السبب الذي دعا إلى مثل هذه الأوامر لأجابنا بأنه: النظام...، ويجيب طبيب من وجهة نظره بأنه: الصحة...، وثالث فنان يذهب إلى أنه: جمال المدينة"[22].

وهكذا يبدو على ضوء هذا المثال أن المجتمعات المتحضرة تولي أهمية كبيرة للجمال لأنه يعتبر مقياس تخلف أو تطور المجتمع وعلامة على تحضره.

وقد يكون سبب غياب الحس الجمالي لدى الفرد المسلم نتيجة الصراعات التاريخية بين المسلمين وأعدائهم والحروب الطاحنة التي لم تترك في حياة المسلم متسعا للترويح والإمتاع بالجمال بل حتى التفكير فيه وكذلك ضعف الجانب الفكري الذي انتقل من الإبداع والاستنباط إلى التقليد والحرفية، مما أفقد الإسلام فاعليته[23]، فهوس شبابنا بتقليد الحضارة الغربية دون استيعاب مبادئها الأصلية ودون الفهم الصحيح لعالم أفكارها جعلهم جيلاً هجيناً مشوّهاً، فلا هم بقوا على ملّة أسلافهم، ولا هم وصلوا لأفق الإنسان الغربي، فجنوا على أنفسهم التي أصبحت لا تتنفس إلا فضلات الحضارة الغربية، وعلى مجتمعاتهم التي أصبحت لا ترى أبنائها إلا في صورتهم التي تدير ظهرها لأي معنى للجمال الإسلامي.

4. الجمال واتجاه الحضارة :

في تحديده لدستور الثقافة، في فصولها الأربعة: المبدأ الأخلاقي، والذوق الجمالي، والمنطق العملي، والفن الصناعي، يرى مالك بن نبي أن هناك علاقة خاصة بين الفصلين الأولين؛ المبدأ الأخلاقي والذوق الجمالي. كما يلاحظ أن هناك علاقة صلة خاصة بينهما، تكون في الواقع علاقة عضوية ذات

أهمية اجتماعية كبيرة. حيث إن هذه العلاقة تحدد طابع الثقافة كله، كما أنها ترسم اتجاه الحضارة، حينما تضع هذا الطابع الخاص على أسلوب الحياة في المجتمع وعلى سلوك الأفراد فيه. فالحياة في مجتمع معين تتخذ لها اتجاها عاما ولونا شاملا، يجعلان جميع تفاصيلها مرتبطة بالمبدأ الأخلاقي وبذوق الجمال الشائعين في هذا المجتمع[24]. ونتيجة هذه العلاقة تأتي أولا في ترتيب خاص يقدم أو يؤخر المبدأ الأخلاقي على ذوق الجمال في سلم القيم الثقافية، حتى يتمكن نموذج معين من المجتمع، ولشرح ذلك وضع مالك بن نبي المعادلة التالية:

مبدأ أخلاقي + ذوق جمالي = اتجاه حضارة.

لافتا النظر إلى أن الترتيب الذي ينظم هذين العنصرين هو الذي يحدد خصوصية حضارة عن أخرى تاريخيا، وقد نتج عن هذا الترتيب ظهور نموذجين من المجتمعات، تأسس النشاط الاجتماعي عند أحدهما على القيم والدوافع الجمالية، وتأسس نشاط الآخر على القيم والدوافع الأخلاقية[25].

وحسب مالك بن نبي، فإن هذا الاختلاف ليس اختلافا شكليا، أو مظهريا، بل هو اختلاف عميق يؤدي إلى نتائج تاريخية ذات أهمية كبرى. إذ كل من المجتمعين يتطور تاريخيا في اتجاه يختلف تماما عن اتجاه الآخر، بل قد يتناقضا في كثير من المواضع، إذ أن ما يمتنع مجتمع عن فعله بدافع خلقي، يعمل الآخر على تحقيقه بدافع جمالي.

إضافة إلى أن السلوك والأذواق والمناظر، واللباس، وكل النسيج الاجتماعي، والعمراني، يخضع في تشكيله إلى العلاقة بين المبدأ الأخلاقي والذوق الجمالي[26]. وللبرهنة على هذه الفكرة، قدم لنا مالك بن نبي مثالا لنموذجين حضاريين هما النموذج الحضاري الإسلامي والنموذج الحضاري الغربي:

فالمجتمع الغربي على سبيل المثال، يولي أهمية كبيرة للمبدأ الجمالي على حساب المبدأ الأخلاقي فقد اشتهر بفن التصوير، وخاصة تصوير المرأة العارية بسبب الدافع الجمالي، في حين نجده خلف آثارا في التصوير وهو ما نشاهده اليوم في متاحف الحضارة الغربية وفي آثارها المتبقية مع الزمن إذ تمنح الحرية المطلقة للفنان لكي يعبر عن كل أشكال الجمال، بينما الفن الإسلامي لم يخلف أثارا في التصوير تصب في هذا الاتجاه، أو بالأحرى في هذا النوع من الصور لأن الرادع الأخلاقي في المجتمع الإسلامي لا يطلق العنان للفنان بأن يعبر عن كل ألوان الجمال خصوصا إذا تعلق الأمر بانجاز صور تجسد المرأة وهي عارية والشيء نفسه أيضا بالنسبة لمسألة ملابس المرأة في كلا المجتمعين، فلما كان المجتمع الغربي قد انطلق من مبدأ معين وهو إبراز جمال المرأة في الشارع بكل ما يمكن أن يوضح مظهر الجمال أي للمرأة الحرية أن تلبس أي نوع من الثياب العصري للكشف عن جمالها ومفاتنها وهذا ما أنتج موجات الموضة والأزياء التي لا تراعي قيم الحشمة والستر والحياء، وتعتبرها لا قيمة لها قياسا إلى المنظر الجمالي، كان المجتمع الإسلامي في المقابل قد اتخذ اتجاها مخالفا تماما له، إذ هدف أساسا إلى إخفاء مفاتن جمال المرأة في الشارع وغض البصر وعدم التبرج تغليبا للمبدأ الأخلاقي كملاية اللف في الجزائر وغيرها من دول العالم الإسلامي للحفاظ على المجتمع ووقايته من الفتن، وهذا لا يعني أن الثقافة

الإسلامية تفتقد لعنصر الجمال أولا تثمنه في ملابس النساء المسلمات مثلا وإنما تضعه في مكان آخر من سلم القيم أي المرتبة الثانية بعد الأخلاق، لكن بالرغم من أنها تضع الأخلاق في المرتبة الأولى إلا أنها أولت عناية كبيرة للبعد الجمالي في الشخصية الإسلامية، فردا ومجتمعا وأمة، واعتبرت أن الجمال صفة أخلاقية يجب أن يتحلى بها الإنسان ويظهر ذلك جليا من خلال التأكيد على جانب طهارة النفس والجسم والمحيط، حتى أن الإسلام اعتبر إماطة الأذى عن الطريق من شعب الإيمان وصدقة يؤجر عليها فاعلها، فهو يطبع الفرد بنوعين من الجمال: الخارجي وهو الذي تحدثنا عنه، والجمال الداخلي وهو ذلك الذي تطبعه فينا مكارم الأخلاق وحسنها، فالأخلاق تنتج الجمال والعلاقة بينهما تكاملية تضمنية وهذا يبين موقع الجمال في المنظور الإسلامي، الذي يعد قيمة غير قابلة للانفصال عن القيم الأخلاقية وعلى هذا الأساس أعطى مالك بن نبي حق السبق والتقدم للمبدأ الأخلاقي لأنه العنصر الحاسم في تركيب الثقافة والموجه الفعلي لمسار الحضارة[27].

فالمسألة في وضعية إحدى هاتين القيمتين: الأخلاق، أو الجمال، باعتبار إحدى القيمتين محورا، والأخرى تابعة.. وهذه المحورية ترجع إلى أصول كل ثقافة وما تركبت منه في بداياتها، وإلى جذورها الأولى، فإذا كانت الحضارة الإسلامية نتاج خط النبوة وتعاليم الوحي، مما جعل "الحقيقة" محورها، فإن الحضارة الغربية تعود في أصول ثقافتها إلى ذوق الجمال الموروث من التراث اليوناني الروماني؛ الذي كان شغوفا بالتماثيل والرسوم، مما جعل الثقافة الأوروبية تركب في مضمونها مزيجا من الأشياء والأشكال، أي من التقنية والجمالية[28].

وهذا الاختلاف في الأصول البعيدة للحضارتين، له أثر فيما ينتجه الفكر في كل واحدة منهما، ويمتد هذا الأثر إلى مجالات كثيرة. فنزعة "الفن للفن" ظهرت في الأدب في المجتمعات التي تمنح الأولوية للذوق الجمالي، وظهرت نزعة "الأدب الملتزم" في المجتمعات التي تقدم الأخلاق - بصورة ما- على الجمال، وفي اتجاه السياسة هناك مناهج نزعت إلى تأسيس ديمقراطية تجعل حرية الفرد هدفا لها، بدافع جمالي، وهناك مناهج أخرى نزعت إلى ديمقراطية تستهدف سعادة المجتمع بدافع أخلاقي، وهكذا في اتجاهات أخرى[29].

5. الفنون الجميلة:

يعالج مالك بن نبي قضية الفن من ناحيتين:

الناحية الأولى: الفن بمفهومه العام؛ يدخل في نطاق الذوق الجمالي - الذي سبقنا الإشارة إليه - وهو يتعلّق بكل ما يمس الحياة بشكل عام من حيث أسلوب حياة المجتمع، وسلوك الأفراد فيه، فطريقة المشي في الشوارع، وكيفية شرب الماء، وكيفية التثاؤب في المجتمعات العامة إلى غير ذلك؛ هذا كله يدخل في مفهوم الذوق الجمالي. حيثُ يشملُ الحياة كلها.

الناحية الثانية: الفن بمعناه الشائع؛ أي بوصفه أدوات يمكن أن تكون داعية إلى الفضيلة ورفعة الأخلاق، أو العكس تكون داعية إلى الرذيلة ومشيعة للفساد[30].

فالفن في نظر مالك بن نبي هو أداة أو أسلوب للتربية والتوجيه، فهو إما يدعو إلى الخير والصلاح، وإما يدعو إلى الشر والفساد، ويعود هذا حسب تحديد وسائله وأهدافه، وهذا ما عبر عنه قائلا: "تبرز أهمية الفن الجميل في أحد موقفين: فهو إما داع إلى الفضيلة، وإما داع إلى الرذيلة، فإذا ما حددت الأخلاق مُثُله، وغذى الجمال وحيه، فينبغي عليه أن يحدد هو وسائله وصوره الفنية للتأثير في الأنفس، ويبرز خطر الفن عندما يشرع في تقرير هذه الوسائل التي تجعله مربياً أو مفسداً، وذلك حسبما يختار من الصور والألحان"[31].

و"هو مرتبط في تطوّره - بالمرحلة التاريخية للمجتمع، فالفن في مرحلة الأفول يكون محكوماً بالغريزة، وموجهاً بدوافعها"[32].

ومثّل له بالرقص الذي تدنى مستواه في بلادنا إلى أن فقد رسالته كتعبير عن قصيدة أو فكرة سامية، وصار الرقص لا يتعدى الإيحاءات الجنسية، وبالتالي فقد الفن (الرقص) رسالته كوسيلة تربوية تغذي الذوق الجمالي لدى الإنسان، يقول مالك بن نبي: "ومن المؤسف أن الرقصة عندنا قد أصبحت صورة جنسية فقط، بينما هي قد اتخذت لها عند اليونان صورة شعرية، وأصبحت في بلادنا أيضا مشوهة للذوق، لأنها اتخذت وسيلتها إلى النفوس الغريزة الجنسية فقط"[33]، فهي بعيدة كل البعد عن سمو الخلق وعلو الهدف شأنها في ذلك شأن الموسيقى والسينما خاصة المصرية منها التي عملت على تكريس الانحطاط الفكري والأخلاقي، ويشبّه مالك بن نبي الموسيقى المصرية بالعدم بقوله: "إن الموسيقى المصرية ليست فنا متصلا بقيم أو بأشياء، بل هي فن يتصل بالعدم"[34]، لأنها لم تقدم أعمالا تربوية بل كانت تقريبا بلا أهداف فلا هي تعبر عن البيئة الطبيعية ولا هي تعبر عن تطلعات الإنسان، فلا نجد لها مكان من الواقع إلا في أحوال قليلة.

من جهة أخرى أشار مالك بن نبي أن الفن الجميل له دخل حتى في الصوّر التي تختار لأطفالنا الصغار في كتبهم المدرسية؛ فنوعية الصور والرسومات الموجودة في الكتب أو التي نضعها على جدران البيوت، هي رسائل تحتوي على توجيه الإنسان نحو مضمون هذه الصور، فإما أن تبعث في نفس الإنسان العزم وحب العمل أو العكس من ذلك، ولشرح هذه الفكرة نقتبس من نص مالك بن نبي ما قاله في كتابه "شروط النهضة": "فلقد شاهدت صورة في كتاب مدرسي للأطفال يدرَّس في مصر (قبل الثورة) ويظهر فيه طفل ترافقه أخته، وهما ذاهبان إلى المدرسة ووراءهما خادم يحمل لهما حقيبتهما: فهذه صورة تبعث في نفس الطفل روح الاتكال واحتقار العمل والعاملين، وهي تصور ما يناسب حاجة (الباشوات) الذين كان بيدهم من قبل - ناصية الأمر لا سواد الشعب، ولا شك في أن مثل هذه الصورة وسائل قتالة في وطن يحتاج إلى التهذيب، لا في سلالة الباشوات، ولكن في أبناء الشعب"[35].

ويلفت مالك بن نبي النظر لمظهر آخر من مظاهر الحياة الفنية عندنا وذلك أننا لا نجمع في خدمتنا للفن أو في أعمالنا الفنية بين الجهد والعبقرية، فالكسل والخمول واللامبالاة من ميزات الفن الجميل عندنا، حتى صرنا نعجب إذا سمعنا أن المقدرة والنبوغ في الفن هما نتيجة الكد الطويل، والجهد المستمر، والعمل الثابت، والاجتهاد في البحث، والانتقاد بقصد التحسين.

فالمواهب الفطرية في نظر مالك بن نبي تعتبر شرط واجب في العمل الفني، إلا أنها ليست الشرط الوحيد، لأن حسب رأيه أن المواهب وحدها وإن كانت تنير اسم الفنان إلا أنها من غير كد وجهد تحرقه، وسرعان ما يصبح في ظلمات النسيان. ويرى مالك بن نبي أن هذا كان شأن بعض الفنانين؛ فإنهم أضاءوا لحظة، ثم انطفؤوا إلى الأبد، لأنهم صاروا يقتصرون على مواهبهم لا على مجهوداتهم الشخصية في ميدان الفن الجميل، ولو أنهم استخدموها في سبيل الفن، لكانوا بين الخالدين.

وهذه الإشارة إلى وجوب التوفيق بين المواهب والمجهودات الشخصية في ميدان الفن الجميل، يراها مالك بن نبي تنطبق أيضاً في ميدان الرياضة، حيث يرى كثيراً من الرياضيين يطلبون الكسب العاجل، ولا يركنون إلى الجهد الطويل، فتذهب مواهبهم الغالية هباء منثورا.

لهذا يدعو مالك بن نبي أنه يلزمنا أن نقرن بين الموهبة والقدرة لكي نحصل على شيء يكون جديراً باسم الفن[36] أو ما نسميه الفن الحقيقي الأصيل غير الفن الكاذب الزائف، لأن النجومية في الفن لا تعتمد على الموهبة الفطرية فقط، بل لابد مع الموهبة من جهد وعمل لتطوير هذه الموهبة ليتمكن صاحب الموهبة من الاستمرار والارتقاء لينافس الآخرين ويثبت وجوده ورسالته الفنية في التاريخ.

وعليه يمكن القول أن "مشكلة الفن لا بد من مراعاتها ضمن الإطار التربوي للثقافة، بحيث يراعى عند ذلك جانبان:

الأول: جانب الموهبة اللازمة للقيام بذلك.

الثاني: جانب القدرة، إذ إن الموهبة وحدها لا تكفي، فلا بد من تكملتها عن طريق القدرة"[37].

6. نظرية مالك بن نبي الجمالية وإسقاطها على الواقع:

إن مالك بن نبي كان صاحب رؤية أو نظرية في المجال الجمالي، وقد أطلق على هذه الرؤية أو النظرية تسمية "التوجيه الجمالي" وتحدث عنها في العديد من كتبه؛ فقد أشار إليها أول مرة سنة 1949م في كتابه "شروط النهضة"، وأعاد الحديث عنها في كتابه "مشكلة الثقافة" سنة 1959م، وظل يُذكّر بها في معظم كتاباته ومحاضراته التي خصصها حول فكرة الثقافة، فقد أشار إليها في محاضرة له عن الثقافة ألقاها في مدينة طرابلس اللبنانية سنة 1959م، ونشرت في كتابه "تأملات" سنة 1961م،

وأشار إليها في محاضرته عن الثقافة والأزمة الثقافية ألقاها في جامعة دمشق سنة 1972م، ونشرت في كتابه "مجالس دمشق" سنة 2005م، وكذلك في محاضرات وكتابات أخرى، ورغم ذلك فإنَّ هذه النظرية على أهميتها وقيمتها وندرتها لم يجر التنبه لها، لا في حقل الدراسات الجمالية بصورة عامة، ولا في حقل الدراسات الإسلامية التي تعنى بالجماليات بصورة خاصة[38].

وهذا ما لاحظه المفكر زكي الميلاد الذي يعد من أهم المتخصصين في الدراسات الإسلامية المعاصرة وفي فكر مالك بن نبي؛ ففي كتابه "الإسلام والنزعة الإنسانية كيف نعطي النزعة الإنسانية قوة المعنى؟" خصص جزءا من أحد الفصول تحدث فيه عن نظرية مالك بن نبي الجمالية ثم أشار في الأخير أن نظرية مالك بن نبي تعرضت للإهمال، وتتأكد هذه الملاحظة من خلال رجوعه إلى العديد من المقالات والدراسات والمؤلفات والرسائل التي كتبت عن مالك بن نبي والتي تحدثت عن سيرته وفكره، والتي صدرت في العديد من الدول العربية، ولمؤلفين جزائريين ومصريين ولبنانيين وسعوديين، فاحصاً مدى عناية مؤلفيها والتفاتهم لرؤية مالك بن نبي لفكرة التوجيه الجمالي، فلم يجد في هذه المؤلفات قدراً لافتاً من العناية والاهتمام؛ إذ لم يجد في عناوينها عنواناً واحداً يبرز علاقة مالك بن نبي بفكرة التوجيه الجمالي، أو بفكرة الجمال والجماليات عموماً، أو أثر هذه الفكرة في تطور علاقة الفكر الإسلامي بالجمال والجماليات وتدعيمها، وما وجده كان مجرد إشارات عابرة، واقتباسات عادية من نصوص مالك بن نبي، دون التوقف عندها، والتأمل فيها، وربطها بسياق علاقة الفكر الإسلامي بفكرة الجمال ومبحث الجماليات[39].

ويرى زكي الميلاد أن حتى الكتابات التي تحدثت عن فكرة الجمال في الفكر الإسلامي، فهذه الكتابات على قلتها، هي الأخرى لم تلتفت لفكرة التوجيه الجمالي عند مالك بن نبي، لأن الكتابات التي تحدثت عنه لم تنهض بهذه المهمة. ولو تنبهت هذه الكتابات الإسلامية الجمالية لفكرة التوجيه الجمالي، لكان من الممكن أن تتغير مسارات هذه الفكرة، وتتبدل منزلتها، وتتكشف قيمتها، وتتصل بالمجال الذي تتبادل معه التفاعل والتأثير[40].

ومما استغرب منه، أن الذين التفتوا لهذه الفكرة هم أولئك الذين كانوا في خصومة فكرية مع مالك بن نبي، وحاولوا توجيه النقد السلبي إليه، فقد وجد هؤلاء في فكرة التوجيه الجمالي شاهدا في نظرهم، على تأثر مالك بن نبي بالثقافة الأوروبية، التي عاش في بيئتها ومجتمعها، ودرس وتعلم في محيطها فترة من الزمن تقدر بربع القرن، وهي الفترة الممتدة ما بين (1930- 1956م)، هي الـتي تعلي من شأن الجمال وتقدسه[41].

وفي نظره أن هذا الرأي صحيح، لكن من غير الوجه الذي تحدث عنه هؤلاء وسياقهم التوظيفي والنقدي، صحيح بمعنى أن مالك بن نبي تنبه لفكرة التوجيه الجمالي حينما كان في باريس، ولو كان في الجزائر فلربما لم يكن لينتبه إلى هذه الفكرة، بهذا النمط الذي تحدث عنه[42].

وأما من جهة المحتوى والمضمون، فإن حديث مالك بن نبي عن فكرة الجمال والتوجيه الجمالي لم يخرج عن نسق الإطار الفكري الإسلامي.

ليس هذا فحسب، بل إنه استعمل هذه الفكرة في نقد الغرب والثقافة الغربية، على نحو يقطع على الآخرين توجيه الاتهام إليه من جهة أنه كان متأثراً بالثقافة الأوروبية.

فتباعد الفكر الإسلامي المعاصر عن علم الجمال ومبحث الجماليات، أو عدم العناية والاهتمام بهذا العلم، أسهم بدرجة كبيرة في عدم الالتفات لفكرة التوجيه الجمالي عند مالك بن نبي، وفي تقدير أهمية هذه الفكرة، والكشف عن قيمتها، ومدى الحاجة إليها[43].

7. خاتمة:

نخلص مما سبق أن حديث مالك بن نبي عن فكرة الجمال أو التوجيه الجمالي لم يخرج عن نسق الإطار الفكري الإسلامي هذا من جهة، ومن جهة أخرى إن نظرته للجمال لم تكن نظرة ميتافيزيقية، أخلاقية أو مادية، بل نظرته للجمال كانت ترتكز بتحديد أبعاده ووظائفه النفسية والاجتماعية، فالجمال في نظر مالك بن نبي يعتبر عنصر هام من عناصر التغيير الاجتماعي ووسيلة من وسائل عملية البناء الحضاري وهو الذي يجعل ثقافة ما متميزة عن الثقافات الأخرى، وهو العنصر الذي يصوغ صورة المبدأ الأخلاقي، لهذا دعا مالك بن نبي في كتابه "مجالس دمشق" إلى تنمية هذا الحس في نفسية الفرد والمجتمع، لأن الحضارة العربية الإسلامية اليوم لفي أشد الحاجة إلى تربية ذوقية ترهف حسها بمواطن الجمال وبخاصة في هذا العصر الذي يعتبر الجمال واجهة تقدم المجتمع ودليل على تطوره.

8. قائمة المراجع:

[1]- عمران وفاء: التوجيه الجمالي ودوره في تركيب الثقافة مقاربة حضارية لمالك بن نبي، مجلة أبعاد، مخبر الأبعاد القيمية للتحولات الفكرية والسياسية بالجزائر، جامعة وهران2، المجلد6، العدد1، 30جوان2020م، ص217.

[2]- بن نبي مالك: مذكّرات شاهد للقرن، بإشراف: ندوة مالك بن نبي، دار الفكر المعاصر، بيروت، ودار الفكر، دمشق، ط2، 1984م، ص273.

[3]- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[4]- المصدر نفسه، ص ص273، 274.

[5]- بن نبي مالك: شروط النهضة، تر: عمر كامل مسقاوي وعبد الصّبور شاهين، بإشراف ندوة مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق، (د.ط)، 1986م، ص100.

[6]- شارف عباس: الجمال والحضارة: مقاربة مالك بن نبي على الحضارة العربية الإسلامية أنموذجا، مجلة التدوين، مخبر الأنساق، البنيات، النماذج، والممارسات، جامعة وهران2، العدد8، ديسمبر2016م، ص 218.

[7]- بن نبي مالك: شروط النهضة، مصدر سابق، ص ص85، 86.

[8] - بن نبي مالك: تأملات، بإشراف: ندوة مالك بن نبي، دار الفكر المعاصر، بيروت، ودار الفكر، دمشق، ط 1، 1979م، ص ص149، 150.

[9]- المصدر نفسه، ص 150.

[10] - العويسي عبد الله بن حمد: مالك بن نبي حياته وفكره، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط1، 2012م، ص 351

[11]- بن مسعود بن الحسن بدران: الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري أنموذج مالك بن نبي، كتاب الأمة، سلسلة دورية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ط1، العدد 73، رمضان 1420هـ، يناير2000م، ص161.

[12]- بن نبي مالك: شروط النهضة، مصدر سابق، ص91.

[13]- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[14]- بن نبي مالك: مذكّرات شاهد للقرن، مصدر سابق، ص 273.

[15]- بن نبي مالك: مشكلة الثقافة، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر المعاصر، بيروت، ودار الفكر، دمشق، ط5، 2000م، ص82.

[16]- المصدر نفسه، ص 84.

[17]- بن نبي مالك: شروط النهضة، مصدر سابق، ص94.

[18]- عمران وفاء: التوجيه الجمالي ودوره في تركيب الثقافة مقاربة حضارية لمالك بن نبي، مرجع سابق، ص214.

[19]- بن نبي مالك: شروط النهضة، مصدر سابق، ص92.

[20]- رباني الحاج: الذاتية وإشكالية التغيير الحضاري في فكر مالك بن نبي، مجلة مقاربات فلسفية، مخبر الفلسفة والعلوم الإنسانية، جامعة مستغانم، المجلد7، العدد 1، 2020م، ص134.

[21]- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[22]- بن نبي مالك: مشكلة الثقافة، مصدر سابق، ص84.

[23]- عمران وفاء: التوجيه الجمالي ودوره في تركيب الثقافة مقاربة حضارية لمالك بن نبي، مرجع سابق، ص 215.

[24]- بن نبي مالك: شروط النهضة، مصدر سابق، ص ص 100، 101.

[25]- المصدر نفسه، ص101.

[26]- المصدر نفسه، ص102.

[27]- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[28]- المصدر نفسه، ص103.

[29]- المصدر نفسه، ص ص103، 104.

[30]- العويسي عبد الله بن حمد: مالك بن نبي حياته وفكره، مرجع سابق، ص362.

[31]- بن نبي مالك: شروط النهضة، مصدر سابق، ص125.

[32]- العويسي عبد الله بن حمد: مالك بن نبي حياته وفكره، مرجع سابق، ص362.

[33]- بن نبي مالك: شروط النهضة، مصدر سابق، ص125.

[34]- المصدر نفسه، ص126.

[35]- المصدر نفسه، ص127.

[36]- المصدر نفسه، ص ص127، 128.

[37]- العويسي عبد الله بن حمد: مالك بن نبي حياته وفكره، مرجع سابق، ص363.

[38]- ملكاوي فتحي حسن: الفن في الفكر الإسلامي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الو.م.أ، ط1، 2013م، ص ص 425، 426.

[39]- الميلاد زكي: الإسلام والنزعة الإنسانية كيف نعطي النزعة الإنسانية قوة المعنى؟، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، ط1، 2013م، ص144.

[40]- المرجع نفسه، ص ص 144، 145.

[41]- المرجع نفسه، ص145.

[42]- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[43]- المرجع نفسه، ص ص145، 146.